

أثر تجربة السجن في شعر ابن زيدون وابن عمار

م.د شيماء هاتو فعل ، جامعة البصرة ، كلية التربية ، قسم اللغة العربية

الخلاصة

تتولد لدى الإنسان إزاء تجارب الحياة مواقف متباينة تحدد المسارات التي يخوض غمارها ، وتجربة السجن واحدة من أتمر التجارب التي تمر على الإنسان ولاسيما الشعراء إذ ينشدون أشعاراً تتغنى بمأساتهم ووصفهم العذاب والهوان الذي يلقونه في السجن ، فتارة نجده نادماً معتذراً مستشفعاً مستعطفاً مقرأً بذنبه وهذه حال الشاعر ابن عمار ، وتارة أخرى نجده مشتاقاً متألماً شارحاً وموضحاً موقفه وهذه حال الشاعر ابن زيدون ، ولهذا يمكننا القول إن محطات شعرهما تنقسم على مرحلتين ابن زيدون مرحلة عشقه وحبه لولادة والثانية محنة السجن ، وابن عمار مرحلة الفقر والفاقة ومرحلة معاناة السجن ، وهما يلتقيان في هذه المرحلة على الرغم من وجود نقاط اختلاف بينهما .

المقدمة

تتنوع الموضوعات التي ينظم فيها الشعراء ، وغالباً ما تتداخل هذه الموضوعات مع بعضها وبحثنا يتطرق إلى أكثر من موضوع نجد فيه الشاعر مادحاً وواصفاً ثم شاكياً ومتوسلاً وأخرى باكياً ونادباً حظاً وزوال نعمته ، ومما لاشك فيه إن الشاعر يجد في الشعر وسيلته التي تفصح عن أحزانه وأفراحه والمتنفس الذي يريح صدره ويزيل آهاته معبراً عن عمق دواخله ومشاعره الفياضة .

تمر على ابن زيدون وابن عمار المأساة نفسها ، وتتمثل هذه المأساة بمعاناة السجن ، وهاتان الشخصيتان تنتميان إلى عصر الطوائف وهو عصر مليء بالحوادث والمفاجات وصراعات ومشكلات أي عصر تجاذبات سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية مختلفة ، وللمكانة التي يحتلها كلا الشعارين وقربهما من الملوك والأمراء ولأنهما يمثلان خطأ سائداً معبراً عن العصر ، وهما من كبار الساسة وغنيان عن التعريف ، الشاعر والكاتب والوزير ابن زيدون هو أبو الوليد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي من أبناء وجوه الفقهاء ، فقد كان والده من الفقهاء المشاورين لعهد الخليفة المستعين ، وكان جده لأمه صاحب الأحكام بقرطبة فهو ينتمي إلى عائلة ذات حسب ونسب لها من العلم والثراء باعُ طويل ، المولود (394 هـ - 463 هـ) سجن سنة (432) من محرم إلى شعبان 433 هـ (1) والناظر لشعره يجد أن ثمة أمرين أثرا على شعره وهما حبه لولادة وسجنه الذي استمر خمسمائة يوم فقد كان محنة عانى منها معاناة شديدة لاسيما حينما وضع مع اللصوص والسفلة (2)

والشاعر والوزير ابن عمار هو أبو بكر محمد بن عمار المولود سنة (422، 477 هـ) من قرية شنبوس الصغيرة قرب شلب من عائلة فقيرة معدمة مغمورة الأصل لا أمجاد تعزز بها ولا مفاخر تدعيها ، والده ينتسب إلى قبيلة مهرة العربية التي ادعى الانتماء إليها آنذاك (3) والتجارب التي مرت به وُلدت لديه

سوء ظن بالطبيعة الإنسانية ، فلم يعر أهمية بالرعاية والود اللذين أحاطه بهما المعتمد بن عباد ، فلا

الشك الذي جعله لا يثق إلا بنفسه مما قوى بنفسه طبيعة المغامرين الوصوليين فاتجه بتفكيره ومحور سياسته إلى اقتناص الفرص وانتزاع المناسبات لتوطيد مكانته وإعلاء شأنه فالدنيا وُجِدَتْ لتحقيق غاياته وإشباع شهواته ، والناس خُلِقُوا من أجل تسخيرهم في سبيل مطامعه(4) ومن أجل إيضاح الفكرة وفي ضوء دراسة الشعر الخاص بالسجن فُسِّمَ البحث على موضوعات وهي :

شكوى ورجاء

وهو من موضوعات شعر السجون التي نظم فيها كلا الشاعرين إذ يشكو الشاعر فيها مصيره والحالة التي أصبح يعيشها وكأنه في حالة تأسٍ وألم على الصيرورة التي حولته من العز والجاه والمكانة المرموقة إلى شخص يعيش في قعر السجون معتمداً على شعره الذي " انعكف فيه على نفسه وجعله تعبيراً عن مشاعره الخاصة والحميمة " (5) ليس له أي مكانة تذكر يجالس اللصوص والسفلة كما هي حال ابن زيدون ، ويظهر في قوله مخاطباً الوزير أبا الحفص شاكياً حاله راجياً التعاطف معه ومشاركته في معاناته (6) :

ما على ظني بأس	يجرح الدهر ويأسو
رُبما أشرف بالمر	ء على الآمال يأس
ولقد يُنجيك إغفا	ل ويرديك احتراس
والمحاذير سَهَامٌ؛	والمقَادِيرُ قِيَّاسُ
ولكم أجدى قُعودٌ؛	وَلَكُمْ أَكْدَى التماس
وكذا الدهر إذا ما	عز ناسٌ ذلّ ناس
وَبَنُوا الأيامِ أَخِيَا	فَ: سَرَاةٌ وَخِساسُ
نَلْبَسُ الدُّنْيَا وَلَ كِن	مُتَعَةً ذَاكَ اللَّباسُ

نستشعر من الأبيات الحكمة وفقدان الهدف والمغزى من الحياة والإيمان بالقضاء والقدر فكل ما يحدث هو بمشيئة الله وقدرته ، فقد " كانت حياته نهباً للهموم والآلام ، والمحن والمصائب ، والأحداث

والغير ، والختل والغدر ، والكيد والحقد ، والبغض والحسد ، والقرب والبعد ، والرضا والغضب ، والوصل والقطيعة ، والصد والإقبال... (7) اكتسب تلك النظرة مما لقيه من الحساد والوشاة من حقد دفين أودى بحياته في السجن ، وكان من بين هؤلاء الحساد منافسه ابن عبدوس الذي استطاع أن يوغر صدر الأمير ابن جهور عليه فضلاً عن ما أثاروه ضده من قضية حبه لولادة (8) ، موجهاً لومه وعتابه إلى الزمن الذي لقي منه الجور والظلم ، فهو يرفع أناساً ويذل آخرين .

ولئن أمسيثُ محبو	سأُ فللغيثِ احتباسُ
يَلْبُدُ الورْدُ السبنتى	وله بعدُ افتراسُ
فتأملُ ! كيف يغشى	مقلة المجدِ النعاسُ؟
ويُفت المسك في التمر	ب فيوطا ويُداسُ؟
لا يكن عهدك ورداً !	إنَّ عهدي لك آسُ
وأدرُ ذكري كأساً	ما امتطتُ كفك كأسُ
واغتنمِ صفو اللّياي ؛	إنما العيشُ اختلاسُ
وعسى أن يسمَح الده	رُ فَقَدَ طَالَ الشَّماسُ

يبدو أنّ تجربة السجن جعلت نظرتَه للحياة كئيبة سوداوية ومخيفة فهي " تصدر عن انفعال عنيف يجعل الشاعر كأنه محور الأشياء يُخضع العالم لنفسه والحالة التي يعانيتها . فهو يعبر عن يقين اللحظة التي يعيشها أي أن الدخيلة الذاتية للشاعر هي التي تبوح بما في نفسها وتلقي به إلى الخارج " (9) ونلاحظ أيضاً استعمال الشاعر ألفاظ (احتباس ، افتراس ، يُداس ، اختلاس) وكلها تشعر بمعنى الضعة والخيبة والقنوط ، فضلاً عن ذلك فهو يتوعدهم بالخروج من جديد ، ولا عجب أن كان محبوساً فالغيث قد يحبس حيناً من السقوط ثم لا يلبث أن يسقط وهذا المعنى نجده في قصيدته " أن طال مكثي في السجن " مشدداً على معاني الشجاعة والإباء والعزة حفاظاً على كرامته ، لذلك يوجه خطابه إلى أبي الحزم بن جهور عسى أن يبرئه فقد كان مضرب المثل في الذكاء ، وقد توافقت وتوافرت على حبه الأدلة النقلية والعقلية فهذه القصيدة "على حالها أشبه بان تكون حكاية حالٍ من أن تكون شكوى واستجداء . ذلك إن الشاعر آنس من صديقه أبي حفص وفاء وحسن بلاء وغيباً حسناً ، فشكا إليه سوء تلك العلاقات الإنسانية مع كثير من الناس " (10) .

في حين يأتي تعنيف الشاعر لنفسه وكأن الدنيا تغيرت أحوالها ونبذته ملقياً لومه على الدهر وتغير الأحوال ومنها تلك المأساة التي ألف فصولها أبو بكر بن عمار صديق المعتمد بن عباد ووزيره وقائده وسفيره (11) إلا أن واقع الحال يقول غير ذلك فهو يفترض افتراضاً على لسان صديقه أبي جعفر

قائلاً : كأي اراك أبا جعفر تقول وتبسم نحوي مشيراً
سفرت لي رجع هذا معي وزيراً فلم أر إلا أسيراً

هو القدر الحتم يعمى الفتى وإن كان بالدهر طباً بصيرا (12)

يبدو أن الشاعر قال هذه الأبيات مخاطباً الوزير مشيراً إلى ذلة الحال والهوان الذي أصابه ، فيعيب القدر ويلومه لأنه يغير ولا يتغير ، في حين إن الشاعر السجين يتوافق معه المثال القائل " على نفسها جنت براقش " فتحول أحواله ووضعها في السجن هو من جنائته على نفسه ، ولم يجن عليه الناس ولا حتى صديقه بل طموحه غير المشروع وخيانتة .

ويظهر رجاء الشاعر في مخمسات ابن زيدون أثناء عرض ذكرياته الأليمة التي يقول فيها (13):

تنشق من عرف الصبا ما تنشقا وعاوده ذكر الصبا فتشوقا
وما زال لمع البرق لما تألقا يهيب بدمع العين حتى تدفقا
وهل الدمع المشوق المصبأ ؟

* * *

خليلي إن أجزع فقد وضح العذُر وإن أستطع صبراً فمن شيمتي الصبرُ
وإن يك رزاً ما أصاب به الدهرُ ففي يومنا خمراً وفي غده أمرُ
ولا عجب إن الكريم مُرراً

ترمي بالشاعر الذكريات والحنين إلى تذكر أيام قرطبة وصباه الذي " ... يتأتى من عوامل عدة منها إحساس الشاعر بعدم الاستقرار في المنفى(السجن) مما يدفعه إلى مقارنة الحاضر بالغابر وأرض الوطن الأصيل بأرض الوطن البديل ، ومنها الرغبة أيضاً في التحريض وذلك من خلال لجوء الشاعر إلى تضخيم الإحساس بالخسارة وما ينتج عن ذلك من لوعة تبرر ما سيذهب إليه من إثارة العواطف وحفز الهمم في سبيل العودة ، ومنها ما يقوم على الحيرة والذهول ورفض الواقع الجديد الذي حدث فيمزج الشاعر بين تلك المعاني وبين إحساسه بالهزيمة بحيث يستطيع أن يجسد حنينه اليأس أكثر مما يجسد أمله بالعودة"(14)

فتبدو دموعه بالانهيال ولمن يتوجه بدعائه ؟ يتوجه بدعائه إلى أصدقائه ليوضح لهم خوفه وجزعه من حاله ، مستعيناً بالصبر على مصائب الدهر ، فقد وجد في الصبر والتجلد أداة للتعبير عن صلابة موقفه وإشاعة معاني السمو والرفعة والاعتداد بالنفس لذا فهو يرى أن لا قيمة للحياة بذل السؤال فإن عزته هي أسمى من أي اعتبار(15) ولذلك تبقى الضغوط الخارجية التي يعاني منها السجين قاسية إلا إنه يتسلح بالصبر وتكون حرته النفسية مقيدة بإرادته (16) ، مبيناً أحزانه وسهره والنواب التي أصابته وجعلت أمانيه بطيئة لأنه يمني نفسه بالأمان الكاذبة غير المحققة موجهاً كلامه إلى قرطبة لذلك يتمنى أن ترجع تلك الأيام الغوالي .

ولأن " السجين أول عهده بالسجن يبرح به الألم ،وينهش قلبه الحزن وتعصف بصوابه الوحشة ولولا أن شعوره يتبدل فيألف حياة السجن ويرتاح إليها ، لاستحال عليه أن يقيم بين جدرانها دهرًا ، ولقضى نحبه في الحال غمًا وقهرًا " (17) إلا إن الشاعر ابن عمار لم يألف حياة السجن فعندما أحس بعظم جنايته استغاث بأخيه أبي الفضل حسداي صاحب شقورة طالباً عفوه وصفحه عنه ، وقد نظم أبياتاً واصفاً موضع اعتقاله :

كاطل يوقظ نائم الزهر	أدرك أخاك ولو بقافية
في غير مومة ولا بحر	فلقد تقاذفت الركاب به
.....
جعلته مرقاة إلى النسر	عال كان الجن إذ مردت
حتى استربت بصفحة البدر	وحش تناكرت الوجوه به
نسرين من فلك ومن وكر	قصر تمهد بين خافقتي
.....
وأطعت أمر مضيع أمري	ووصلت خدمة قاطع سببي
مستأثراً بالحمد والشكر (18)	دع ذا وصلنا غير مؤتمر

يطلب الشاعر من أبي الفضل مساعدته ولو بقافية بعد أن تركه أصحابه ولم يساعده ، لأنه بعد ذلك يصف حاله وكيف حالت بها الدنيا وتنكرت له الوجوه فبعد العز والجاه وعيشته في القصور والأماكن الفارهة أصبح سجيناً مقيداً بالأصفاد ليس له الحق حتى بالإدلاء برأيه وهذا ما نجده عندما قام المعتمد بن عباد بمنع إعطائه الورق حتى يكتب القصائد التي يطلب بها العفو منه " ولعل مما يحرك كوامن الشاعر ، ويدفعه لبث أناته ، ما يعتريه من حيف ، وما يلم به من قهر ، ويتسلط عليه من أذى .. ولعل فقدته لحرته من الأمور الباهضة التي تكلف الشاعر كثيراً من المتاعب والإشجان" (19) .

ويشكو الشاعر ابن زيدون حاله مستدركاً شكواه ومعرضاً بالحاقدين والحاسدين بقوله :

رمتني الليالي عن قسي النوائب	فما أخطأتني مرسلات المصائب
أقضي نهاري بالأمانى الكواذب	وأوي إلى ليل بطيء الكواكب
وأبطأ سار كوكب بات يُكلأ	

*

*

ولا يغبط الأعداء كوني في السجن ؛ فإنني رأيت الشمس تحصن بالبدن
وما كنت إلا الصارم العضب في جفن أو الليث في غاب أو الصقر في وكن
أو العلق يخفى في الصوار ويُخبأ

إن استعمال الشاعر عبارتي (رمتني ، ما أخطأت) جاء للإيحاء بتسديد الرمية وشدة وقعها عليه ، متحدثاً عن نفسه وهو في السجن ، ومشيراً إلى الشامتين الذين فرحوا بدخوله إلى السجن ، مشبهاً حاله بحال الشمس التي لا يمكن إخفاؤها ، وبالسيف والغيم والليث والمسك ، إذأ يتخذ الشاعر من حديثه عن قرطبة وذكرياته الماضية ثم حديثه عن السجن وأتينه، ليدل بها على شجاعته وحنكته اللتين لم يستطع الوشاة أخذهما منه إذ يحاول إثبات براءته والدفاع عن نفسه في رد الشبهات وطلب النصرة له .

ويستعين ابن عمار بصاحب المرية في مدة اعتقاله في شقورة ويخبره بحاله قائلاً :

أصبحت في السوق ينادي على رأسى بأنواع من المال
فهل فتى يبتاعني ماجد أخذمه مدة إمهالي
تالله لاجار على نقده من ضمنني بالثمن الغالي
أربح بها مولاي من صفقة في سلعة من ترك الغال (20)

فقد أصبح سلعة يُنادي بها كي تُشترى بالمال ولمن يدفع أكثر وهنا يبدو الحظ من الكرامة والاستهتار بشأن الوزير الذي كان يحسب له ألف حساب والآن أصبح سلعة كاسدة لا يهتم لأمرها ينادى عليها حتى ينتبه على وجودها مع العلم إنه كان الوزير الذي له شأن ومكانة مهمة لا تنكر ، ويبدو أن المال يؤدي أثراً مهماً في حياته ، لذلك يجعله الوسيلة والوسيلة التي تنقذه من السجن وقد كانت هذه من ضمن شعاراته التي يؤمن بها .

وان بقاء الحال من المحال هو ما توجي به هذه الأبيات في قوله :

بؤسى شقورة عندي أربى على كل بؤسى
فقدت هرون فيها فظلت أطلب موسى (21)

فهو من بعد الغنى والجاه الذي جاءه بعد حياة الفقر والذلة يصبح في حياة كلها هوان واحتقار ، وكأنه يلوم نفسه فهو الذي وضع نفسه بهذه الحالة وجلبها إلى هكذا مكان ولهذا فقد جاءت قصائده " تعبيراً عن حالة نفسية معينة يعانيتها إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة " (22) فهو يبكي نفسه ويرثيها مشبهاً حاله ومنزلته عند المعتمد بمنزلة هارون من النبي موسى (ع) إذ فقد بشقورة أخاه المعتمد وصحبته عندما أُلقي في السجن

& استعطاف ولوم وعتاب

وفيه يتوجه الشاعر مستعطفاً إلى كسب ود الأمير والفوز برضاه وصفحه مستعملاً الوسائل والسبل

كافة

لتحقيق مأربه والحصول على أهدافه فهو " وسيلة لاستدرار عطف آسريهم ، واستمالة قلوب الحكام الذين . كانوا وراء سجنهم بلوغاً إلى نيل عفوهم وإطلاق سراحهم " (23) أو أن يكون معاتباً ولائماً من لم يساعده ويستجيب له نداءه واستغاثته مخلداً بحسه المرهف شعراً ذاتياً إنسانياً مصوراً فيه أعمق مشاعر النفس في حالة السحق المادي والمعنوي (24) ، ومنها قول ابن زيدون :

قَلْ لِلْوَزِيرِ وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ زَمَنِي فَكَانَ السَّجْنُ مِنْهُ نَوَابِي
لَا تَخْشَ فِي حَقِّي بِمَا أَمْضَيْتَهُ مِنْ ذَاكَ فِيَّ وَلَا تَوَقَّ عِتَابِي
لَمْ تَخْطِ فِي أَمْرِي الصَّوَابَ مُؤَفَّقًا؛ هَذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الكَذَّابِ ! (25)

يلوم الشاعر نفسه ويؤنبها على فعلها ، فقد قضى عمره وهو يمدح الوزير ، وقابله بالسجن عقاباً له ولم يخشاه ويضع في حسابانه أنه سوف يحاسبه ويعاتبه على فعله على الرغم من إن الشاعر " استطاع أن يسهم في توجيه الصراع لمصلحة آل جهور ، وأن يكون من أبرز القرطبيين الذين حملوا الجمهوريين إلى الحكم ، ووظدوا لهم الملك سنة 422 هـ وهكذا أسندت إليه الوزارة حيناً من الزمن " (26) وبغض النظر عن تضارب الآراء حول مناسبة الأبيات أقالها الشاعر وهو في السجن أم عند هروبه منه ؟ ، فان ما يدل على انه قالها عند هروبه قوله (قل ، بما أمضيته) مشيراً إلى الأيام التي قضاها في السجن وإيصال الكلام إلى المعني .

في حين يستعطف ابن عمار الرشيد بن المعتمد وقد كتب من سجنه باشبيلية طالباً شفاعته لدى أبيه :

قَلْ لِبَرِقِ الغَمَامِ ظَاهِرِ بَرِيدِي قاصداً بالسلام قصر الرشيد
فَتَقَلَّبَ فِي جَوْهِ كَفَوَادِي وتناثر في صحنه كالفريد
وَانْتَحَبَ فِي صَلَاصِلِ الرِّعْدِ تَحْكِي ضجتي في سلاسل وقويد
فَإِذَا مَا اجْتَلَكَ أَوْ قَالَ مَاذَا قلت : إني رسول بعض العبيد (27)

هنا يتجه الشاعر باستعطافه إلى الرشيد ابن المعتمد ليكون الوسيلة بينه وبين أبيه ، طالباً من الغمام أن يوصل برقيته باتجاه قصر الرشيد ، كي تشرح حاله وهو مقيد وسجين ، وهنا يظهر الشاعر أماكن الوصول إلى مبتغاه كما كان يفعل فيما مضى بأي طريقة وأي أسلوب كان . ونلمس من قول ابن زيدون الشعور بالملل والألم (28) :

مَا جَالَ بَعْدَكَ لِحْظِي فِي سَنَا القَمَرِ إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذِكْرَ العَيْنِ بِالْأَثْرِ
وَلَا اسْتَطَلْتُ ذِمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسْفِ إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرْتِ مَعَ القَصْرِ
نَاهِيكَ مِنْ سَهْرٍ بَرِحَ تَأَلَّفُهُ شوقاً إلى ما انقضى من ذلك السمر

تظهر المبالغة في وصف الشاعر لليل الذي كان يحيه بالسهر وقد انقضى حزناً وتألماً عليه عندما اقتيد إلى السجن و " لا شك في أن شقاء الإنسان في هذا العالم المضطرب يعود إلى إدراكه أن ذاته

سجينة حبيسة وأن طاقاته الحيوية تتبدد عبثاً إذا هو لم يستطع أن يبورها في إطار فكرة واقعية نابغة من حقيقة وجوده عنصراً إنسانياً فعالاً " (29) فهو يتذكر أيام الأُنس واللهو التي قضاها مع الملك مشيراً إلى المحبة والصدقة التي كانت بينهما 0

وكتب ابن عمار إلى الرازي بن المعتمد مستعظماً ومستشفعاً لديه بقوله :

قالوا أتى الرازي فقلت لعلها	خلعت عليه من صفات أبيه
فأل جرى فعسى المؤيد واهباً	لي من رضاه ومن أمان أخيه
قالوا نعم فوضعت خدي في الثرى	شكراً له وتيمناً ببنيه
يا أيها الرازي وإن لم يلقني	من صفحة الرازي بما أدريه
هبك احتجبت لوجه عذر بين	بذل الشفاعة أي عذر فيه (30)

لقد تعب الشاعر من تلك النداءات التي كان يطلقها للمعتمد عسى أن يسمعه ، ولكنه لا يأبه به ، ولم يعطه أملاً في التخلص من سجنه ، لذلك يبتغي الوسيلة إليه بأبنائه ومنهم الرازي الذي ناداه في أبيات مستعظفاً طالباً عفو الأمير وصفحه عنه ، وأن يكون لديه بعض من صفات أبيه وسجاياه . ولعل أكثر ما كان يقض مضجع ابن زيدون هو عمل الحاسدين الذين أطاحوا به قوله :

لا يهنأ الشامت المرتاح خاطره	أني معنى الأمانى ضائع الخطر
هل الرّياح بنجم الأرض عاصفة؟	أم الكسوف لغير الشمس والقمر؟
إن طال في السجن إيداعي فلا عجب	قد يُودعُ الجفنَ حد الصارم الذكر
وإن يثبط "أبا الحزم" الرضى قدر	عن كشفِ ضري فلا عتبٌ على القدر

الشاعر في حالة صراع مع القدر إذ يتوعد الشامتين لذلك يوجه لهم الكلام لتغيير أحواله ويقول لهم إن هذه الأمور لا تعصف إلا بالعظماء ف " ما من شاعر إلا وله شامت أو حاقد أو حاسد ، يفرح لسجنه ، ولما يلحقه من أذى ؛ لذا فليس من المستغرب أن يصور لنا هؤلاء الشعراء شماتة هؤلاء الحاسدين ، ثم يعلنون لنا دخولهم السجن ، ويظهرون تجلدهم ؛ حتى لا ينال هؤلاء منهم شيئاً ، ويلجؤون . في ذلك . إلى فن التعليل ؛ ليجملوا به وجوههم أمام حاسديهم ، ويعلنون . من خلاله . شموخهم واستعلاءهم على نوابئ الزمن " (31)

وأن وجوده في السجن لا يعني نهايته ، وإن تأخر أبو الحزم بن جهور عن إنقاذه من محنته عاتباً على القدر ، فقد يشتد الخطب ثم يهون .

ثم يعود الشاعر ابن عمار ليكتب من سجنه في اشبيلية إلى المأمون بن المعتمد يطلب شفاعته لدى أبيه (32) :

هلا سألت شفاعاة المأمون	أو قلت مافي نفسه يكفيني
ما ضر لو نبهته بتحية	يسرى النسيم بها على دارين
وهزرت منه فقد يقلب سيفه	يوم الجلاذ الحين بعد الحين

بيدي من المأمون أوثق عصمة
لو أن أمري في يد المأمون
أمري إلى مولى إليه أمره
وكفاء من فوق كفاه ودون

يبدو أنّ الشاعر لم يعدم وسيلة إلا واستخدمها لذلك نلحظه يتجه مرة ثالثة إلى ابن المعتمد المأمون على أن طلب شفاعته الرشيد والراضي لم ينفذ لذلك اتجه متوسلاً بابنه المأمون ، ولعل مطلع قصيدته ينبئ بفعلته وأساته عندما نظم قصيدته وهو يعرض بالملك وأهله ، لذلك هو يستعطفه طالباً منه أن يكون وسيلته لنيل مغفرته ورحمته، لذلك نلحظه يظهر نفسه مسكيناً مستكيناً أمام عز الملك وسطوته :

حيث استوى الخصمان حقاً والتقى عز الغني بذلة المسكين
فهو هنا يقر بأفعاله وأعماله المشينة التي يرجو أن يكون الأمير أفضل وأعلى منه مقاماً ويسامحه ويعطيه حريته قائلاً :
وإذا ظمى للذنب لم يسمع به إلا الدعاء يعان بالتأمين
كم أسكب العذب الفرات على فمي يرمي يدي باللؤلؤ المكنون
واليوم قد أصبحت في غمراته إن لم تغشني رحمة تجنيني
بعدت سواحله علي وأدركت أمواجه فتلاعبت بسفيني
لا شك في أي غريق عبابه إن لم يمد الفتح لي بيمين
كأن الشاعر يطلب من ابن الأمير المعتمد (الفتح) أن يستخدم جميع وسائله من أجل إقناع ابيه ، وكأنه يعرف النتيجة مسبقاً التي يحملها المعتمد اتجاهه منادياً وواصفاً إياه بجميع الصفات والسجايا التي تدل على الشجاعة والفروسية قائلاً في ذلك :

يا فتح جردها عناية فارس
يا فتح جردها عناية فارس
يا فتح جردها عناية فارس
يا فتح جردها عناية فارس
يا فتح جردها عناية فارس
يا فتح جردها عناية فارس
يا فتح جردها عناية فارس
يا فتح جردها عناية فارس

ويلقي ابن زيدون اللوم والعتاب على الوشاة قائلاً :

ما للذنوب التي جاني كبائرها
غيري يُحملني أوزارها وزري
من لم أزل من تأتبه على ثقة
ولم أبت من تجنيه على حذر

والصورة توضح استغرابه من الأناس الذين يحملونه ذنوباً وأوزاراً لم يرتكبها ، فهو في حالة عدم استقرار وأمان من تجني الملك عليه وعدم الوثوق به وتبرئته ، لذلك يستشعر أملاً من الأمير عسى أن يعفو عنه ،

فالشاعر المجيد هو من يستطيع أن يحول صورته إلى وسيلة لقراءة ليس أفكاره فقط وإنما انفعاله العميق أيضاً(33)

وعلى الرغم من معرفة الشاعر ابن عمار للمعتمد بحكم الصداقة والملازمة له ، فإنه لم يتق ولم يضع حدوداً لتمرده وخيانتته ، نلحظه عندما يتوجه بالكلام مع ابنه فإنه يضع الخطة في كيفية التعامل معه والدخول إليه كي يتمكن من إقناعه والرضوخ لمطالبهما في فك سجنه وقيده وإعطائه حريته قائلاً:

ما يعرض الجبار منه لحاجة إلا برفع يد ووضع جبين
يا فتح إن نازلته مستنزلاً فأهناً بفتح من رضاه مبين
وليخلصن إليك من أعلقه علق يشد عليك كف ظنين

& اعتذار ووصف حال

وهي من الموضوعات الشعرية التي تناولها الشعراء وهم في السجون يعتذرون راجين من ساجنيهم فك قيودهم ومسامحتهم متمنين مغفرتهم والعفو عنهم لذا فقد " كان الاستعطاف والاعتذار من أكثر الأغراض شيوعاً في شعر الأسر والسجن في الأندلس " (34) وهذا ينطبق تماماً على شعر ابن عمار ، و نجد الاستعطاف عند ابن زيدون ولكن بدون ذلة محافظاً على كرامته وهيبته ، في حين لم نجده معتذراً .

يقول الشاعر ابن زيدون واصفاً مرارة الاعتقال (35) وتشاركه الطبيعة آهاته " إذ اكتسبت مشاعرهم ، وأحست بمعاناتهم ، وتعاطفت معهم ، وعبرت بطريقتها الخاصة عن صدى انفعالها بمحتوى خطابهم ، وعن تأثرها بالواقع المفجع الذي يحيط بهم ويعانون منه معاناة شديدة القسوة في أماكنهم (36) :

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي؟ ويطلب تأري البرق مُنصلت النصل؟
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما لتندب في الآفاق ما ضاع من تتلي
ولو أنصفتني وهي أشكال همتي لألقت بأيدي الذل لما رأته ذلي
ولا افتترقت سبعُ الثريا وغاضها بمطلعها ما فرق الدهر من شملي

كل مخاطبات الشاعر للطبيعة تحمل ألفاظ (الشمس ، القمر ، البرق ، الغمام ، النجم) توحى بمعنى العزة والكبرياء والإباء والشجاعة والهيبة والوقار يحاول تأكيدها دائماً ، لذلك يطلب الشاعر من الطبيعة مشاركته في آهاته على أن تقوم النجوم مأتماً عليه ، وان النجوم لو أنصفت لهوت مثله ، وانتفضت حزناً على ما فعله الدهر من تشتيت شمله ، فهو يشعر بالطبيعة شعوراً عميقاً ويرفعها إلى منزلة حبيبته ، ويمزج حبه لها بشعوره نحوها (37) .

وقد سجن المؤتمن (المعتمد بن عباد) يوماً غلاماً كان له في نفس ابن عمار موقع حسن فتخلف ابن عمار عن الركوب للقصر. ويبدو إن هذا السجين لم تكن فعلته وجريته كبيرة تستوجب الغضب والحد. فكتب إليه قائلاً : أنا المطبق المسجون لا من سجنته وأطبقتك فانظر لعبدك أو دع

حرام حرام أن تراني عين من تراه فأن شئت ارتجاعي فارجع

ويا حسن الود إن سمحت يد ولقيت فيها بالشفيع المشفع (38)
وهنا طلب الشاعر من المؤتمن فك القيد عن السجين فعفا عنه ، ولكن عندما طلب ابن عمار العفو
فهل صفح عنه المعتمد بن عباد ؟ لذلك كتب عندما كان سجيناً في شقوره إلى المطرز :
ترأى بعيني إن أردت مبرتي وسبب إلى الحسنى ولو بقسيم
فما شم عرف المسك دون تنشق ولا اهتز عطف الغصن دون نسيم (39)
الظاهر إن الشاعر لم يترك أحداً إلا واستعان به كي يكون الساعي والمخلص له من سجنه ، فيكون
وسيطه عند الأمير ولكن لا سبيل له من النجاة لذلك يطلب منه أن يسعى من أجل تبرئته وخروجه
من السجن .

وتقود مشاعر الحزن ابن زيدون وهو في السجن إلى تذكر والدته ولأن " الصورة لا يشترط في
خلقها الألوان البلاغية ، ويمكن أن توظف وسائل أخرى في بناء القصيدة كالعاطفة أو الفكرة أو
الإيقاع ..."(40) فعاطفته ومشاعره تجاه والدته هي مكونات الصورة والعناصر الفعالة فيها، إذ يصف
حزن أمه عليه بقوله :

أقلى بكاءً لست أول حرة طوت بالأسى كشحاً على مضض الثكل
وفي أم موسى عبرة إذ رمت به إلى اليم في التابوت فاعتبري واسلي
يخاطب ابن زيدون أمه كي تقلل من حزنها وبكائها عليه فلها في أم موسى أسوة تتأسى بما أصابها
من مصائب وثكل ، إذ قذفته في اليم امتثالاً لأمر الله تعالى .

ومن اعتذاريات ابن عمار التي كتبها إلى المعتمد في مدة اعتقاله بشقورة قوله :

نفسى تحن إلى فداء نفديك نفسى من شراء
فاسبق بنقدك وعدهم مسترخصاً لي بالغلاء
ثم امض في على اختيا رك من فناء أو بقاء
والله ما أدري إذا قالوا غدا يوم اللقاء

ما أقتل الحاليين لي إن كان خوفي أوحياي (41)

ما الذي يدعو الشاعر إلى اقتران حالة الخوف لديه بحالة الحياء ؟ فهل ليطلب من الأمير فك قيده
والخروج من سجنه أو لأنه عمل عملاً مشيناً قد دل عليه من خلال أقواله هذه ، وهي خيانتته وعدم
الطاعة والتمرد على أميره وصديقه ، وهنا نلاحظ الشاعر يختم قافيته بالهمزة المحركة بحرف المد الياء
الذي يزيد من إحداث التناغم الموسيقي والانسجام الصوتي في أبياته التي تجسد " حنين الذات
العميق ونزوعها إلى الانطلاق خارج المدار المغلق ... أي إن القافية تشكل طرفاً من ثنائية ضدية
طرفها الآخر التجربة الأساسية نفسها : القيد والحصار في السجن "(42)

وتعود مشاعر الأسى لدى الشاعر ابن زيدون ثانياً ويسترجع أياماً خوالياً قضاها في قرطبة مع حبيبته قائلاً :

شحطنا وما للدار نأي ولا شحطُ	وشط بمن نهوى المزار وما شطوا
أحبابنا ألوت بحادثٍ عهدنا	حوادثٌ لا عقد عليها ولا شرطُ
لعمركم إن الزمان الذي قضى	بشت جميع الشمل منا لمشتطُ
وأما الكرى مُذ لم أزرکم فهاجرُ	زيارتهُ غبَّ وإمامهُ فرطُ
وما شوقٍ مقتول الجوانح بالصدى	إلى نُطفةٍ زرقاء أضمرها وقطُ (43)

تقود الشاعر الذكريات والأشواق إلى الأماكن التي يحبها فهي معهد صباه وحبه الذي اضطره السجن إلى

الابتعاد عنها لذلك ذهب إلى هذا المكان أولاً عندما هرب من السجن لكثرة حنينه إليه إذ تبدو " العاطفة الإنسانية العميقة التي ينطوي عليها قلب الشاعر بإزاء القضية التي يعيشها بين جوانحه ، هذه العاطفة التي توجه تعبيراته الفنية إلى أدوات التعبير الناجحة في امتصاص خلجات نفسه وأهازيج روحه ، بحيث إننا -نحن المتلقين - نحصل في النهاية على عمل فني صادق ، معيار صدقه ما نستشعره فيه من نبض ، وبمعنى آخر نقول إن هذا المعيار هو مدى التكافؤ بين ما يحسه الفنان من عواطف وما يعبر بواسطته عن هذه العواطف " (44) فهو يريد جمع الشمل والعودة إلى أيام الأُنس واللهو التي قضاها في قرطبة ، فقد هجره النوم والراحة منذ هجرته فما عاد يزوره إلا قليلاً وكذلك هي أشواقه .

ويمدح ابن عمار المعتمد بصفات الكرم والجود متناسياً إن كثرة كرمه وسماحته كانتا من الأسباب التي دعت إلى التمادي بتصرفه معه والتمرد عليه قائلاً فيها (45) :

كنت أشدو عليك يا دوحة المج	د ويا روضة الندى والجود
إذ جناحي ند بظلك طلق	ولساني رطب على التغريد

ثم يشير إلى ضعفه وحريته المقيدة بعد أن كان حراً طليقاً ، لذلك يعده بأنه سيطلق فيه شعراً مادحاً له مشيداً بسماحته وعفوه ، بعد أن أطلق ألفاظاً هاجية له ومعرضة بزوجه وأبنائه متمرداً عليهم طاعناً بنسبهم قائلاً فيهم : ألا حي بالغرب حياً حلالاً أناخوا جمالاً وحازوا جمالاً

.....
أراك تورى بحب النساء	وقدما عهدتك تهوى الرجالا
تخيرتها من بنات الهجان	رميكية ما تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار	لئيم النجارين عمأ وخالا (46)

مؤكداً موقفه في السجن بقوله :

وأنا اليوم تحت ظل عقاب	لقوة محوة الجناح صيود
أتقيها بناظر خافق اللد	ظ مروع وخاطر مرؤود
غير أني سأصطفي لك جهدي	من ثناء طيب وذكر حميد
في قليل من القوافي كثير	وذلول من المعاني شرود
كلمات كأنها الدر نظماً	طوقت منك أي طوق وجيد

ويختم السجين أبيات اعتذاره طالباً منه ولو نظرة تكون له رحمة تجلو حزنه وتكون المعين له بقوله

:

مشفق يستجيب لي من قريب	وأنا أستغيثه من بعيد
لو أطلت علي رحمة عيني	ه انجلت شدتي وذاب حديدي

طلب الاستغاثة من بعيد واستجابة القريب غير متحققة عند الأمير المعتمد ، فقد تلاعب الشاعر بمعنى لفظة القريب والبعيد القائمة على التضاد وإذ " يكمن جانب من جوانب القيمة الإبداعية الجمالية للشعر في ما يعتمل في داخله من علاقات مغايرة أو تضاد معنوي ، تمنحه بعداً جمالياً وتوقداً ذهنياً ينشط حركته الفكرية ، وينمي فيه التداعي الذهني المغذي لأجواء التلقي ، على أن مدى تحقق هذا الجانب الإبداعي يتصل اتصالاً وثيقاً بلغة الشاعر ، وموهبته ، وعمق تجربته الشعرية " (47) فقد كان المعتمد قريب عليه وأبعده بتصرفاته

وخيانته التي جعلته بعيداً بعد الأرض عن السماء ، وما من ريب في إن ابن عمار كان انتهازياً وصولياً لا يهتم بصداقة ولا عهداً (48).

وفي قول ابن زيدون :

وإن رجائي في الهمام ابن جهورٍ	لمستحكّم الأسباب مستحصدُ الحبلِ
همامٌ عريق في الكرام وقلما	ترى الفرع إلا مستمداً من الأصلِ
نهوض بأعباء المروءة والتقى	سحوبٌ لأذيال السيادة والفضلِ

يخاطب الشاعر في الملك مروءته ونخوته وشجاعته مستشهداً بنسبه الأصيل وسيادته وتفضله ، ومما يلفت النظر أن الشاعر في أثناء قصائده التي نظمها في السجن يخاطب الملك أبا الحزم ولم نجده معتذراً بل نراه ذلك الهمام الوثاق الشجاع العارف بنتيجة فعله فضلاً عن ذلك " نتحسس في هذا البيت (الأخير) رغبة الشاعر في التعريض بمعاني خمول الممدوح وضعف همته لأن لفظتي (نهوض ، وسحوب) مثلما تدلان على المبالغة في الوصف ، فإنهما كذلك من الألفاظ التي يشترك فيها المذكر مع المؤنث يُعزز ذلك سيادة الألفاظ المؤنثة في البيت مثل (المروءة ، السيادة ، أعباء ، أذيال)(49) ، وإنما نجد قصائده في العتاب والاعتذار . أغلبها . عند هروبه من السجن ومن هذه القصائد التي قالها معاتباً أبا الحزم بن جهور :

عُتَبَاكَ - بعد العتب - أمنيّةً مالي على الدهر سواها امتزاج! (50)

* * *

ثم يكمل قصيدته اللامية بعد مناجاة الملك ونعته بسجاي الشجاعة وصفات الكرم قائلاً :

أبا الحزم إني في عتابك مائلٌ على جانبٍ تأوي إليه الغلا سهل

جوادٌ إذا استن الجياد إلى المدى تمطر فاستولى على أمد الخصل

أئن زعم الواشون ما ليس مزعماً تعذر في نصري وتعذر في خذلي

يعرض الشاعر آماله وأمانيه في صفح الملك على إن يطلق سراحه ، فهو يخاطب ويناجي في الملك صفحه وسماحته وكرمه معاتباً له حائزاً رضاه وبالع غاياته ، متعجباً من إصغاء الأمير للوشاة مستنكراً عليه الاستماع إليهم متخاذلاً عن نصرته والدفاع عنه داحضاً أقوالهم وشايتهم عنه .

ومما قاله ابن عمار في أبيات له تحمل معنى الدعوة إلى مناصرته وطلب العفو والمغفرة عسى أن يعفو عنه المعتمد بعد أن استنفد كل طاقاته وتوسلاته بأبنائه قائلاً فيها (51) :

يقول قوم إن المؤيد قد حال في فديتي على نقده

يا قوم ماذا الشراء ثانية ترى لمعنى يريب من عنده

أوحشني والسماح عادته سماحة بالغلاء في عبده

الحمد لله أن يكن حرجاً فليس في مثله سوى حمده

فهو يرجو فضله وسماحته لأنه مثل البحر عند غضبه وكرمه دائم العطاء ، وإنه يطلب الرحمة والعطاء حتى في حالة الغضب والسخط وعدم الرضا قائلاً

أخضر يفتر من جوانبه كالبحر في جزره وفي مده

يا رب بشر برحمة وحيأ تؤنس من برقه ومن رعه

في حين قال ابن زيدون في أخريات أيام سجنه في رسالته الجدية هذه الأبيات مستشفعاً بها :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم

سرنا عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للمستديم

.....

بؤاً الله "جهوراً" أشرف السو دد في السرو واللباب الصميم

بأبي أنت!! إن تشأ تك برداً وسلاماً كمنار إبراهيم

للشفيع الثناء والحمد في صوت ب الحيا للرياح ، لا للغيوم

وزعيم بأن يُذلل لي الصع ب مثابي إلى الهمام الزعيم

وودادٌ يغير الدهر ما شا ء ويبقى بقاء عهد الكريم

ومتى تبدأ الصنيفة يولع ك تمام الخصال بالتميم (52)

مقدمة غزلية للشاعر يبدؤها بألفاظ الطبيعة إذ " يتجه الإنسان إلى عرض عدة موضوعات محاولاً إقناع من يتحدث إليه بعدالة مطلبه وساعياً إليه وجعله يتعاطف مع قضيته التي يطرحها ، لترجح كفة الاستجابة لما يطلب ممن يتوجه إليه بالحديث لذلك سعى ابن زيدون في بعض قصائده إلى التوسل للموضوع الذي يفرضه بأغراض أخرى" (53) جاعلاً من الأمير النجم والنسيم العليل ففي ظهورهما تحقيقاً لأمانيه وسروره متربحاً ومتأملاً مثل العاشق الذي ينتظر طلة حبيبته ، متناسين ما فات من العهد القديم مستنداً إلى الآية القرآنية {وَمِرْآجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ} (54) فهو يدعو له أن يهبه الله أعز مكان من المجد والمروءة ، كما يشير إلى الآية القرآنية {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} (55) فأن الشفاعة أصل فيه والرياح هي باعثة للسحاب والحاملة له ، وحببه باقٍ مهما تغيرت الأحوال وتبدلت القلوب ، لذا فهو يترجى إحسانه والرضا عنه لأن مروءته توجب عليه ذلك ، ومن الجدير ذكره إن الشاعر وهو ينظم قصائده طالباً العفو والصفح عنه نلاحظ تلك الشيمة والاعتزاز بالنفس وذلك العلو ، أهو لأنه كان بريئاً وقد اتهم زوراً وبهتاناً أو لأن في نفسه تلك النعرة؟! أي نعرة الشعراء التي لم تقبل الرضوخ والاستسلام لذلك نجده متأرجحاً بين طلب العفو والصفح وحببه لنفسه واعتزازه بها .

أما آخر قصيدة بعثها ابن عمار إلى المعتمد "بعد ما استبد به الطمع ، وعثر به الحظ وعلم ألا فرار من المعتمد إلا إليه كتب إليه" (56) يستعطفه بها يقول فيها (57) :

سجايك إن عافيت أندی وأسمح	وعذرك إن عاقبت أجلي وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية	فأنت إلى الأذى من الله أجنح
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع	عداتي وأن اثنوا علي وأفصحوا
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا	سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لي ذنب غير أن لحلمه	صفات يزل الذنب عنها فيسفح
وإن رجائي أن عندك غيرما	يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح

فهو يطلب العفو والمغفرة من سجايا الأمير ومزاياه وصفاته طالباً منه إلا يستمع للأعداء والحاسدين الذين يشوهون سيرته ، ويظهر إن الرأي الذي أوصاه بالأخذ به هو الذي فعله المعتمد إذ أدى ذلك إلى أن يقتله وهو معتقل في السجن ، على الرغم من إقرار الشاعر بذنبه ولكن هيهات له صفح الأمير ، ويرجع الشاعر

بالأمير ويذكره بما كان يحمله له من محبة وخدمة سابقة يقول فيها :

ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة	يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهبني وقد أعقت أعمال مفسد	أما تفسد الأعمال ثمة تصلح
أقلني بما بيني وبينك من رضى	له نحو روح الله باب مفتح

وكان ابن عمار يطلب مغفرته على أن يصحح أخطاءه وأعماله المشينة ولا يلتفت إلى أقوال الوشاة ولا يستمع لكلامهم فيقول في ذلك :

وعف على آثار جرم جنيته بهبة رحمي منك تمحو وتمصح
ولا تلتفت رأي الوشاة وقولهم فكل إناء بالذي فيه يرشح
وما ذاك إلا ما علمت فإنني إذا تبت لا انفك آسو وأجرح
تخيلتهم لا در لله درهم أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا

ويضع ابن عمار المعتمد في خيارين وهما البطش أو اللحم معه ويجعل كفة حلمه هي الراجحة كي يسامحه ويصفح عنه ، ثم نلحظه وكأنه يباري الوشاة بأنه سيفوز برضا المعتمد وصفحته يقول فيها :

وقالوا سيجزيه فلان بفعله فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتجى ولكن حلماً للمؤيد أرجح

وهنا نلاحظ دقة عبارة الشاعر وشدة احتياله على الملك بأن يجعل حبه في قلب الأمير المعتمد مثل التميمة التي تنفع حتى مع الموت على العكس من تميمة أبي ذؤيب الهذلي عندما رثى أبناءه الخمسة قائلاً :

وإذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل تميمة لا تنفع (58)

وهذه التميمة نفسها التي أشار إليها الشاعر ابن عمار في اعتذاريته للمعتمد قائلاً :

وبين ضلوعي من هواه تميمة ستنفع لو أن الحمام ملج

وبهذا فان القصيدة " تصور حالته النفسية وما يعانیه من صراع وقلق واضطراب ما بين يأس ورجاء ، وخوف وأمل ، وقد جهد في استدرار عطف المعتمد ، مثيراً فيه عواطف الرحمة والشفقة ، مذكراً إياه بما كان بينهما من حب وود ، طالباً منه ألا يلتفت إلى ما يقوله الأعداء والمبغضون ، فهو يعترف بذنبه ، لكن أمله قوي بعفو المعتمد وصفحته" (59) ومن العجيب إن الشاعر في خاتمة قصيدته يختتمها بالسلام وكأنه سلام الميت في آخر قصيدة قالها وهو سجين يطلب فيها السماح من الملك كي يعفو عنه قائلاً :

سلام عليه كيف دار به الهوى إلي فيدنو أو علي فينزع

ويهنيه إن مت السلو فإنني أموت ولي شوق إليه مبرح

وبهذا تبقى أشواقه وأحلامه وأحزانه معلقة ، ولم تنفعه شكوى ولا استعطاف أو اعتذار ليقضي آخر أوقاته ويلقى حتفه ميتاً بيد صديقه وأخيه وأميره المعتمد وتذهب آماله وطموحاته من دون تحقيق .

الخاتمة

نستشف من مخاطبة الشاعر الوزير ابن زيدون العتاب واللوم وطلب الصفح والعفو من تهمة ألصقت به من فئة من الوشاة والحاسدين استغلوا فيها حبه لولادة واهتمامه بها ، وإمساك زمام الأمور بيده فهو وزير وكاتب وشاعر وُجِّهت الأنظار إليه وجذب اهتمام الناس إليه من شخصيات سياسية واجتماعية وحتى من عامة الشعب ، فقد شغل الدنيا بعلمه وشعره وسياسته في إدارة الأمور ، فضلاً عن انشغال ولادة بنت المستكفي به وقد كانت شاعرة يتمنى وصالها العديد من رجالات الدولة والوزراء والقادة إلا أنّ قلبها اختار ابن زيدون ، وقد اتهم بأنه يقود أو يحث على الانقلاب ضد حكومة أبي الحزم بن جهور ممّا أثار حفيظته وجعلته يكن له الحقد والبغضاء ، فَحُكِمَ عليه لذلك بالسجن نلحظ الشاعر راح يُبرئ نفسه من التهمة التي نسبت إليه ظلاماً وعدواناً ، فنظم لذلك شعراً وهو في السجن يُفند هذه الأقوال الحاقدة ، راجياً أن يشمل برحمته وصفحته ولكن لم يجبه ابن جهور .

إن تشبيهات الشاعر التي جاء بها من الطبيعة تمثل معنى العلو والسمو والشجاعة والمروءة والإقدام وإنه لا ينكر فضل من كان يعينهم ويشاركهم في أمورهم كلها ، ولا أدري ذلك الاعتداد والثقة بالنفس العالية من أين ؟ أ جاءت من التهمة التي وُجِّهت إليه وكونه بريئاً منها وهو لذلك لم يعتذر لأنه لم يرتكب ذنباً ، إلا أنّ اعتذارياته جاءت في مخاطبة أبي الحزم بن جهور بعد هروبه من السجن طالباً من الأمير أن يسامحه على هروبه ليس إلا . ولأنه ينحدر من أسرة لها شأن عظيم في العلم والأدب عائلة ميسورة تعلّم منها الصفات والخلال الحميدة رفعت مكانته ، وكونه شاعراً وكاتباً ووزيراً له أنفة الشعراء وخيلاء الكتاب وكبرياء الوزراء يستشعر بعدالة قضيته وبرأته من التهمة الموجهة إليه ولأنه عارف بأحقاد الأعداء وأضغانهم ، فضلاً عن ذلك حنينه إلى قرطبة التي تعني له والدته التي تركها وهي تعاني المرض ، وولادة حبيبته وهذا زاد من معاناته وآلامه القاسية .

أما الشاعر والوزير ابن عمار فطلب المساعدة والعون من أبي الفضل والمطرز وأمير شقورة فضلاً عن أبناء المعتمد الراضي والمأمون والفتح فقد كان عارفاً بجنايته العظمى وخيانتته لصديقه المعتمد بن عباد لذلك راح يطلب الاستغاثة منهم ، ويبدو شعره أكثر من شعر ابن زيدون وهما في السجن . لم نجد للشاعر شعراً يذكر فيه أهله (والدته زوجته أو حبيبته وأولاده) وإنما كان يفكر بنفسه فقط ، وكيف يتمكن من التخلص من السجن من دون أن يذكر أحداً ، تلاشي القيم والمعايير واللاهدفية والطموح غير المشروح وانعدام المغزى هي أسباب دخول ابن عمار إلى السجن .

تدل أشعاره على حالة اليأس والقنوط من العفو وأن بدا مستعظفاً ومستشفعاً ، ولعل الاستعطاف بهذا وذاك كان جزءاً من ذلك اليأس في الإفراج عنه ، وعلى الرغم من تفتح قريحة الشاعر الشعرية وللمرة الثانية بعد حالة الفقر والهوان التي نستطيع القول عنها المرحلة الأولى من حياته وقد كان فيها مبدعاً أيما إبداع كذلك نلحظه يبدع في المرحلة الثانية مرحلة النكبة أو المحنة وهو داخل

قضبان السجن ، ولهذا يمكننا القول إن قمة شعره تتأرجح بين مرحلتين الأولى عندما كان يطلب ود الملوك والأمراء والمرحلة الثانية هي معاناته في السجن ومن الجدير ذكره شيوع حالة الهوان والذلة في ثنايا شعره وهو سجين .

قائمة الهوامش

- (1) ينظر :المغرب في حلى المغرب : 63/1 حقه وعلق عليه د0 شوقي ضيف ، الذخيرة : ابن بسام : 26/1 ،بغية الملمتس في تاريخ أهل الأندلس : الضبي : 160 ، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس : أبو عبد الله الحميدي :131/4 .
- (2) ينظر : عناصر الإبداع في شعر ابن زيدون : د0 فوزي خضر: / 9 .
- (3) ينظر :المغرب في حلى المغرب : 389/1 ، الحلة السيرة : أبن الابار :131/2 ، محمد بن عمار الأندلسي ، دراسة أدبية تاريخية لألمع شخصية سياسية في تأريخ دولة بني عباد في اشبيلية : د0صلاح خالص : 19 .
- (4) ينظر : المعتمد بن عباد : علي أدهم : 99 .
- (5) الشعر والبيئة في الأندلس : د0 ميشال عاصي : 85 .
- (6) ديوان ابن زيدون ورسائله : 354 .
- (7) تاريخ الأدب العربي في الأندلس : إبراهيم علي أبو الخشب : 296 .
- (8) ينظر : في الأدب الأندلسي : د0 جودت الركابي : 176 .
- (9) المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام : مقبول علي بشير النعمة : 168 .
- (10) في الأدب الأندلسي : د محمد رضوان الداية : 330 .
- (11) ينظر : البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف : سعد إسماعيل شلبي :332 .

- 12) محمد بن عمار الأندلسي : 301 .
- 13) ديوان ابن زيدون : دراسة وتهذيب : عبد الله سنده : 40 .
- 14) أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي : د0 يوسف عيد : 43 .
- 15) ينظر : شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام ، دراسة وتحليل : د0 محمد فتاح عبيد ، مجلة القادسية ، مج 2 ، ع 3 ، 2002 : 142 .
- 16) ينظر : أدب السجون : نزيه أبو نضال : 222 .
- 17) أصول علم النفس في الأدب العربي القديم : زهدي جار الله : 12 .
- 18) محمد بن عمار الأندلسي : 302 .
- 19) شعر السجون في القرن الأول الهجري : غانم جواد رضا ، مجلة آفاق عربية السنة 3 ، ع 12 ، 1978 : 101 .
- 20) محمد بن عمار الأندلسي : 305 .
- 21) محمد بن عمار الأندلسي : 307 .
- 22) قضايا النقد الأدبي والبلاغة : محمد زكي العشماوي : 108 .
- 23) شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام : د0 محمد فتاح عبيد الجبائي ، مجلة القادسية ، مج 2 ، ع 3 ، 2002 : 139 .
- 24) ينظر : عصر ابن زيدون : د0 جمعة شيخة : 271 .
- 25) ديوان ابن زيدون : عبد الله سنده : 279 .
- 26) ملامح الشعر الأندلسي : د0 عمر الدقاق : 134 .
- 27) محمد بن عمار الأندلسي : 309 .
- 28) ديوان ابن زيدون ورسائله : 338 - 341 .
- 29) أسفار في النقد والترجمة : د0 عناد غزوان : 23 .
- 30) محمد بن عمار الأندلسي : 308 .
- 31) القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقة : د0 علي الغريب محمد الشناوي : 146 .
- 32) محمد بن عمار الأندلسي : 313 - 316 .
- 33) ينظر : الصورة الفنية في شعر أبي تمام : د0 عبد القادر الرباعي : 77 .
- 34) القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقة : 143 .
- 35) ديوان ابن زيدون ورسائله : 346 .
- 36) أنسنة المكان : د0 مرشد أحمد : 64 .
- 37) ينظر : دراسات في الشعر الأندلسي : 177 .
- 38) محمد بن عمار الأندلسي : 300 .
- 39) محمد بن عمار الأندلسي : 304 .
- 40) فصول في الشعر : د0 احمد مطلوب : 178 .
- 41) محمد بن عمار الأندلسي / 306 .
- 42) جدلية الخفاء والتجلي : كمال أبو ديب : 70 .
- 43) ديوان ابن زيدون ورسائله : 364 .

- 44) شعرنا الحديث... إلى أين ؟ غالي شكري : 201 - 202 .
- 45) محمد بن عمار الأندلسي : 310 - 312 .
- 46) محمد بن عمار الأندلسي : 291 - 292 .
- 47) البناء الفكري والفني للقصيدة الإسلامية (في الشعر العراقي الحديث) : د0 ماهر دلي الحديثي : 161 .
- 48) ينظر : عصر الدول والإمارات (الأندلس) د0 شوقي ضيف : 196
- 49) ديوان ابن زيدون ورسائله : 337 .
- 50) مظاهر الجرأة في الشعر الأندلسي : د0 علي مطشر نعيمة ، أطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة ، كلية التربية ، 2009 : 192
- 51) محمد بن عمار الأندلسي : 317-318 .
- 52) ديوان ابن زيدون ورسائله : 358 - 363 .
- 53) عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون : 46 .
- 54) سورة المطففين : 27 .
- 55) سورة الأنبياء : 69 .
- 56) دراسات في الشعر الأندلسي : 180 .
- 57) محمد بن عمار الأندلسي : 319 - 321 .
- 58) أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره : نورة الشملان : 57 .
- 59) الشعر في ظل بني عباد : محمد مجيد السعيد : 194 .
- قائمة المصادر والمراجع

القران الكريم

- أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره : نورة الشملان ، ط1 ، شركة الطباعة العربية (السعودية . 1980)
- أدب السجون : نزيه أبو نضال ، دط ، دار الحداثة (بيروت . 1981)
- أسفار في النقد والترجمة : د0 عناد غزوان ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد . 2005) .
- أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي : د0 يوسف عيد ، ط1 ، دار الفكر اللبناني (بيروت . 1993)
- أصول علم النفس في الأدب العربي القديم : زهدي جار الله (بيروت . 1978) .
- أنسنة المكان : د0 مرشد أحمد ، دط ، دار التكوين (دمشق . 2009)
- بغية الملتبس في تاريخ أهل الأندلس : أحمد بن يحيى الضبي ، تح د0 روحية عبد الرحمن السويفي ، ط1 ، دار الكتب العلمية (بيروت . 1997)
- البناء الفكري والفني للقصيدة الإسلامية (في الشعر العراقي الحديث) : د0 ماهر دلي الحديثي : ، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد - 2009)
- البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف : سعد إسماعيل شلبي ، مطبعة نهضة (القاهرة - 1978)
- تاريخ الأدب العربي في الأندلس : إبراهيم علي أبو الخشب ، دار الفكر العربي ، مطبعة المدني (القاهرة . دت)

- جدلية الخفاء والتجلي : ، دراسات بنيوية في الشعر : كمال أبو ديب ، ط1 ، دار العلم للملايين (بيروت - 1979)
- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس : لأبي عبد الله الحميدي ، قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه د0 صلاح الدين الهواري ، ط1 ، المطبعة العصرية (بيروت . 2004)
- الحلة السيرة : ابن الأبار ، حققه وعلق حواشيه د0 حسين مؤنس ، ط2 ، دار المعارف (القاهرة - 1985)
- دراسات في الشعر الأندلسي : سعد إسماعيل شلبي، مطبعة نهضة (القاهرة - 1978)
- ديوان ابن زيدون : دراسة وتهذيب د0 عبد الله سنده ، ط2 ، دار المعرفة (بيروت - 2008)
- ديوان ابن زيدون ورسائله : شرح وتحقيق ، علي عبد العظيم ، مكتبة نهضة مصر (القاهرة - 1957)
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ابن بسام ، تح د0 أحسان عباس ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي (بيروت - 2000)
- الشعر في ظل بني عباد : محمد مجيد السعيد ، ط1 ، مطبعة النعمان (النجف . 1972)
- شعرنا الحديث... إلى أين ؟ غالي شكري ، دار المعارف (مصر . دت) .
- الشعر والبيئة في الأندلس : د0 ميشال عاصي، ط1 ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت - 1970)
- الصورة الفنية في شعر أبي تمام : عبد القادر الرباعي ، جامعة اليرموك (الأردن . 1980) .
- عناصر الإبداع في شعر ابن زيدون : د0 فوزي خضر، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين (الكويت . 2004) .
- عصر ابن زيدون : د0 جمعة شيخة ، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين (الكويت . 2004)
- عصر الدول والإمارات (الأندلس) د0 شوقي ضيف ، ط4 ، دار المعارف (القاهرة . 2005)
- فصول في الشعر : د0 أحمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي (بغداد . 1999) .
- في الأدب الأندلسي : د0 جودت الركابي ، ط3 (مصر . 1970) .
- في الأدب الأندلسي : د0 محمد رضوان الداية ، ط1، دار الفكر المعاصر (بيروت - 2000)
- القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مألقة : د0 علي الغريب محمد الشناوي ، ط1 ، مكتبة الآداب (القاهرة - 2003)
- قضايا النقد الأدبي والبلاغة : محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية (بيروت . 1979) .
- محمد بن عمار الأندلسي ، دراسة أدبية تاريخية لألمع شخصية سياسية في تأريخ دولة بني عباد في اشبيلية : د0 صلاح خالص ، مطبعة الهدى (بغداد . 1957)
- المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام : مقبول علي بشير النعمة ، ط1 ، دار صادر (بيروت . 1997)
- المعتمد بن عباد : علي ادهم ، دط ، دار القدس (بيروت . دت)
- المغرب في حلى المغرب : حققه وعلق عليه د0 شوقي ضيف ، ط4، دار المعارف (القاهرة . 1993)
- ملامح الشعر الأندلسي : د0 عمر الدقاق ، دار الشرق (بيروت . 1975)
- الدوريات
- شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام ، دراسة وتحليل : د0 محمد فتاح عبيد ، مجلة القادسية، مج 2 ، ع 3 ، 2002 .
- شعر السجون في القرن الأول الهجري : غانم جواد رضا ، مجلة آفاق عربية السنة 3 ، ع 12 ، 1978 .

الرسائل والأطاريح

- مظاهر الجرأة في الشعر الأندلسي :د0علي مطشر نعيمة ، أطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة ، كلية التربية ،
2009 .